

عادات وتقاليد سكان بلاد المغرب القديم ومدى تأثيرها على الأسرة

بنت النبي مقدم

قسم التاريخ . جامعة الجزائر 2

العادة في أي مجتمع منذ القدم هي الدأب و الإستمرار على ما شهده لدى سلفهم و من سبقهم في مكان تواجدهم ، والبعض يربط بين العادة و العُرف و يجعل الأولى أعم و أشمل من الثاني ، و التقاليد هي ما ينتقل للإنسان من أسرته و من سبقه و معلميه و مجتمعه من العقائد و العادات و العلوم و المعارف و حتى الأعمال و كيفية القيام بها ، و نظرا لما للعادة و التقاليد من أثر كبير على النفس و الروح و تأثير في اندماج الإنسان في مجتمعه فقد نزح الفرد قديما لاتباع ما رأى فيه سلفه صالحا للفرد أو المجتمع ، أو لاتقاء ما قد يصيبه من مكروه أو جالبا لخيره ؛ و قد تعددت و اختلفت عادات و تقاليد الشعوب القديمة بحسب مكان تواجدها و احتكاكها بأقوام أثروا فيها و كذا بمدى إيمانها بمقدساتها و تطبيقها لطقوس شعائرها ؛ و من تلك الشعوب التي تجعلنا نتساءل عما عرفته من عادات سكان بلاد المغرب القديم ، هاته البلاد التي ركزت أغلب الدراسات التي اهتمت بتاريخها بالسياسي منه و العسكري .

يعتبر هيرودوت¹ من بين أهم المصادر التي تحدثت عن الأسرة و عادات و تقاليد بلاد المغرب القديم أثناء حديثه عن ليبيا في كتابه الرابع من التواريخ ، و من ذلك إشارته في الفقرة 168 من هذا الكتاب أنه كانت لنساء قبيلة الأديرماخيدي "Adurmakhidae"² ، عادة عض القملة و الرمي بها بعد أن يجدها في شعورهن على عكس ما تشير إليه بعض الدراسات الغربية³ إلى أن نساء الأديرماخيدي كن يأكلن القمل مستندين في ذلك على هيرودوت ؛ و يضيف هذا الأخير أنه كن يضعن بكل ساق حلقة من البرونز وهذا يدل على أن استخدام الخلخال للزينة قديم ببلاد المغرب القديم قدم السكان الأصليين بالمنطقة ، و من عادة أبناء هاته القبيلة أيضا أن يصطحبوا الفتيات اللواتي هن بصدد الزواج لمقابلة الملك قبل زفافهن و إذا أعجبتة واحدة افتضها ، و الحق يقال أن هاته العادة الأخيرة كانت لدى الكثير من قبائل الشعوب القديمة كالهند بأمريكا و استمرت حتى فترة متأخرة بأوروبا و يذكر غزال "S.Gsell"⁴ في هذا الصدد أن هذا الأمر يدخل

ضمن نطاق "حق السيد" وأنه في أواسط القرن 19 كان لا يزال هذا الحق موجودا لدى حاكم تقرت ؛ في حين من عادات الزامونيين⁵ حسبما يذكره في الفقرة 172 ، أن يتخذ الرجل عدة زوجات ، و أما إذا أراد أن يضاجع امرأة يضرب عمودا إشارة إلى رغبته في امرأة تشاركه الفراش ، وليلة العرس يتعاقب ضيوفه الواحد تلوى الآخر على عروسه ويقدمون لها هدايا متواضعة من موجودات بيوتهم ، و قسّمهم لا يكون إلا بأحد أهل السمعة الطيبة و الشجاعة ، و يضعين أيديهم على قبر أحد الصالحين من موتاهم ، و أما للتنبؤ بما يريدون معرفته ، فعلمهم بالصلاة على قبور أسلافهم ثم ينامون بعين المكان و بعدها يقومون بتأويل ما رأوه في أحلامهم ، ولحفظ العهد بينهم يتناولون الشراب من أيدي بعضهم بعضاً و إذا لم يجدوا ما يشربوه أخذوا حفنة تراب و لعقوه ، كما تعودوا دفن موتاهم جالسين لذلك كانوا ممن يحرص على أن لا يستلقي المحتضر حتى لا يصعب إجلاسه .

ونقرأ في الفقرة 175 من الكتاب الرابع دوما لهيرودوت أن رجال قبيلة المكاي "Macae"⁶ تعودوا حلاقة شعر رؤوسهم على الطرفين و يطلقونه في الوسط على شكل عرف الفرس ، على عكس الماكسواس "Maxues" (من القبائل المزارعة و القاطنة بالساحل الشرقي لتونس) الذين يحلقون الجانب الأيسر و يتركون الأيمن (الفقرة 191) ، و الأوزاس يطيلون شعر المقدمة في حين الماخيلاس يطيلون شعر خلف الرأس (الفقرة 180) ، غير أنه يمكننا اعتبار هاته التي رأى فيها هيرودوت عادات مجرد سمة مميزة لرجال قبيلة عن أخرى حتى يعرفون بعضهم البعض و لأي قبيلة ينتمون ؛ و تزّين نساء الجندانس "Gindanes"⁷ كما ورد بالفقرة 180 كواحلين بشريط من الجلد عن كل رَجُلٍ عاشرها ، و كلما ازدادت الأشرطة ذاع صيتها و ازدادت جاذبيتها ، و برأيي أنه يمكن تحليل ذلك بتغيب الخطّاب فيها خاصة إذا علمنا أن الكثير من فتيات قبائل الشعوب القديمة كن يمتن الدعارة لجمع المهر في حالة كون عُرف القبيلة يقتضي دفع المرأة مهراً للرجل و بالتالي هن يعلمونهم مسبقاً بعدد الأشرطة أن المهر جاهز ،

واشتهرت قبيلة الأوزاس أيضاً بإقامة حفل كل سنة للاحتفال بالإلهة أثينا وينظمون خلاله عرضاً لمصارعة الفتيات بين بعضهن البعض ، حيث تنقسم فتيات القبيلة إلى مجموعتين تتقاتلان بالعصي و الحجارة ، و بعدها تختار الأجمل بينهما لتحمل على عربة بعد أن يلبسونها درعاً إغريقياً و خوذة كورنثية و يدورون بها حول بحيرة تريتونيس "" ، أما من تموت أثناء المعركة فهذا يعني أنها ليست عذراء (الفقرة 180) وهنا يجدر بنا

التوقف عن سرد ما ورد بالفقرات اللاحقة فقط للتنبيه إلى أن هذا الحفل يمكن أن يكون أيضاً طريقة للكشف العلني وإثبات عذرية الفتيات ، ورغم عدم تصريح هيرودوت صراحة بطبيعة الفتيات المختارات للمصارعة إلا أنه ضمناً نفهم أنه يفترض أن تكون المشاركة عذراء و يبدو واضحاً أن الاحتفاظ بالعذرية كان مقدساً لدى هاته القبيلة مادامت تعتبر الميَّنة بعد العراك في حفل ديني كهذا ليست عذراء ، دون أن نتجاهل تأثيرهم باللباس الاغريقي الذي يلبسونه للأجل فحين أو علَّه يكون رمزاً لقوة المرأة لديهم . خاصة إذا علمنا كما أورد بنفس الفقرة لنفس القبيلة أنه من تقاليدهم إذا ولد طفل بالقبيلة ينتظرون حتى تظهر ملامح الطفل ، ويستدعونه لحضور مجلس القبيلة الذي ينعقد دورياً كل ثلاثة أشهر و يحدد الوالد من بين الحضور على أساس الشبه ، ومثل هذا الحدث يؤكد على قوة المرأة في هاته القبيلة نظراً لقدرتها على تربية أبنائها من دون رجل⁸، رغم أن أغلب المؤرخين الغربيين⁹ لم يأخذوا هاته الفقرة من هذا المنحى و إنما اعتبروها همجية من الأوزاس و دليلاً على عدم وجود الزواج لديهم و إنما مشاعية جنسية و لو أن هاته الأخيرة يمكن الرد عليها بما ذكر آنفاً إذ كيف تكون لديهم مشاعية جنسية و الموت عقاب غير العذراء لديهم و في الحقيقة أنه لا يمكننا تصديق هيرودوت في كل ما رواه بشأن العلاقات الجنسية و طريقة التواصل الاجتماعي بين أفراد بعض القبائل و أخلاقياتهم في أسس تكوين أسرهم .

يعيش بين مصر و بحيرة تريتونيس بدو رُحَّل حسب هيرودوت (الفقرة 187) ، بعضهم يقومون بكي عروق الرأس و الصدغين للطفل بعد بلوغه سن الرابعة لتحسينه من الزكام و بعد الكي يرشونه ببول الماعز و لهذا برأيه هم أسلم صحة ، و يبدو أن بول الماعز بالنسبة لسكان بلاد المغرب القديم اعتبر من أهم وسائل التطبيب لديهم ، حيث عرف عن الأسرة بالمنطقة مداواة المرأة التي تصاب بالافرازات المهبلية و ذلك بشربه مخلوطاً مع بعر الماعز و قد أثبتت التجربة فعالية هذا الدواء حسب بلين القديم (Pliny , H.N, XXVIII,7,8) مما جعل القابلات "Obstetrix" آنذاك يصفنه¹⁰ ، و من عادات بعضهم أيضاً ممن يعبدون الشمس و القمر أنه عند تقديم القرابين لما يعبدونه يقطعون أذن الأضحية و يرمون بها فوق مساكنهم و من بعدها يحزون رقبة الحيوان (الفقرة 188) ؛ ويعتقد هيرودوت (الفقرة 191) أن عادة الندب و النواح في الطقوس ليبية الأصل و للنساء الليبيات حسب رأيه أسلوب جميل فيها ، و يشير إلى أن من عادات الماكسياس صبغ أبدانهم بصباغ غير لون الجلد ؛ و كذلك يفعل الغيزانتس الذين تعودوا صبغ

أجسامهم باللون الأحمر (الفقرة 194) ، ومن عادات¹¹ رجال البسيلاس للتأكد من كون أبنائهم من صلبهم يضعون الوليد أمام أو بالقرب من أفعى ، فإذا بقي حياً فهذا دليل على أن زوجاتهم لم تخنهم أثناء غيابهم .

كما ساد الاعتقاد بين سكان بلاد المغرب القديم و لازال مسيطراً حتى يومنا هذا بالعين الشريرة و التي أسماها اللاتين بإنويدوس "Invidus" مما جعلهم يلجؤون لبعض الطقوس و الطرق التي تعود أسلافهم إبعاد العين بها و كل ما يجلب لهم و لعائلاتهم السوء ، كالوشم و التماائم و قشور النعام و اليد التي نسميها اليوم بالخامسة و البعض يدعوها يد لالة فاطمة¹² ، مع أننا لا نستبعد أن تكون هي يد سبازيوس "Sabazius"¹³ " المعروفة باليد الميمونة " وكانت تستخدم بغرض مباركة القطيع و المحاصيل و تقرب الخير لصاحبها و تبعد عنه الشر سواء المسلط من الآلهة أو من أعين البشر الحاسدين و تضمن السعادة الأبدية ؛ في حين اعتبر بلين القديم¹⁴ أن المديكوس إنويدياي "Medicus Invidiae" الفعال أي دواء العين هو الفالوس "Phallus" بمعنى عضو التناسل الذكوري المنتصب ، و يعلق أمام باب المنزل أو في رقبة الأطفال للعين و إبعاد الأرواح الشريرة ؛ و الغريب في الأمر أن مثل هذا الطقس الغريب لا يزال ممجدا لدى بعض الشعوب حتى يومنا هذا و يحتفلون في مهرجان الفالوس الذي يرمز للقوة و القدرة و حتى الحماية ، كذاك الذي يقام كل سنة في الخريف باليابان و يدعى كنامارا ماتسوري "Kanamara Matsuri" بكوازاكي ويحبد البدء به في أول أحد من شهر أفريل أو هونان ماتسوري "Hōnen Matsuri" بكوماكي في 15 مارس ، وفيه يطوف اليابانيون و من معهم ممن يحتفلون به من بقية أنحاء العالم بفالوس ضخيم يبلغ طوله 2,5 م و وزنه 280 كغ على عربة محمولة على أكتاف مجموعة مختارة من الرجال الذين يبلغون 42 سنة ، يلبسون الأبيض رمز الطهارة و النقاء و هم يهتفون و يهللون ، كما يبيعون مجسمات له من الحلوى و حتى المأكولات كي يشتري جميع المحتفلين الرغبين في الخصب و الحماية و حتى أولئك الأزواج الذين يرغبون في الحمل و استمرار التوافق بينهما ؛ أما بالنسبة لمجتمعنا المسلم فيبدو أنهم غيروا الشكل و جملوه في شكل رصاصة توضع بداخلها بعض العقاقير و تعلق أو تحمل مع من يخاف على نفسه العين و يرغب في كل ما هو خصب جميل ؛ والحق يقال و لأن العين حق فلنا في الرسول الكريم أسوة حسنة و تكفيننا صلاة الفجر و سبع تمرات صباحا و قراءة المعوذات حتى نحصل على الخصب كله و نتقي أي شر أو سوء و للأطفال نتبع ما روي في صحيح البخاري عن تعويذه صلى

الله عليه و سلم للحسن و الحسين بقوله : "أعيزكما بكلمات الله التامة من كل شيطان و هامة ، و من كل عين لامة " .

وبالنسبة للمنازل فقد استخدم أيضاً الفالوس في شكل مجسمات معدنية لتعلق و كذا خلال القرن الأول الميلادي من عجينة الزجاج و كذا لوحات منقوشة كذلك المعلم البارز النقش الذي عثر عليه بلبدة (Liptis Magna) بليبيا وهو عبارة عن تميمة لحماية البيت تعود للقرن الثاني قبل الميلاد و هو يصور فالوس يخترق عيناً فوقها عقرب¹⁵ ، متخذين في ذلك مبدأ الدواء من جنس الداء أو الشئ السيئ لا يواجهه أو يقضي عليه إلا مثيله "Similia similibus curantur"؛ و أحياناً تكتب عبارات على أطراف الفسيفساء المزينة للبيت كتلك الموجودة بمتحف سوسة بتونس و التي كتب صاحبها : «أيها الحاسد الممتنع ، هاته المباني الرائعة التي تنوي إحلال الضرر بها ، أقيمت لتحية الآلهة فلا تستخف بالأمر»¹⁶ ، كما استخدموا السمك رمز الخصوبة و الرزق و الذي اعتبروه قادراً على إبعاد العين الشريرة كزينة في البيوت ، و يكفي أن تكون السمكة كتعويذة على الجدران أو سواكف الباب حتى يكون المسكن و من يسكنه محميّاص من أي مجهول ، و حتى مع مجيء المسيحية لم يفقد السمك تلك الأهمية التي حضي بها في تعود الناس الخلاص به ، و اعتبروا المسيح كصيد و المسيحيون كأسماء لأهم يحصلون على الخلاص على يد المسيح بالتعميد و ظل يزين فسيفساء البازليك و بيوت المسيحيين¹⁷ .

هذا ويشير محمد الصغير غانم¹⁸ إلى أن من عادات سكان المنطقة إقامة حفل ديني لأنزار "Anzer" كي تمطر السماء و ينتشر الخصب و تقضى الحاجات و تطرق للعادات المتداولة للحصول على محصول جيد و غلة وفيرة ، و تحدث أيضاً عن عاداتهم الجنزية و تقاليد الدفن لديهم و التي بعضها يعود لمرحلة ما قبل التاريخ ، غير أنني و في مجال الرغبة في الحصول على محصول جيد أضيف لما ذكره أستاذنا الكريم محمد الصغير غانم عادة لجوء المزارعين قبل موسم الزرع للسحرة و المشعوذين و إعداد تائم و نقوش¹⁹ يكتب عليها طلاس تهدي للآلهة الحامية مثل أمكار "Ameqqar" ومعناه الكبير ، لحماية الزرع و المحصول من العائنين و الحاسدين و من كل ما يمكن أن يعصف بما ينبغي أن تعطيه الأرض من وفرة في الغلة و الجودة ، و يعرف عن هذا الإله تركزه بمنطقة التوارق ، و قد ورد إسمه في نقيشة سحرية كتبت بالإغريقية بغرض الحفاظ

على محصول الكروم و الزيتون من كل ما يمكنه أن يسبب الأذى لهذا المنتج بتلك الضيعة²⁰.

و يذكر لنا ابن سوق اهراس (Thaghaste) القديس أوغسطين الكثير من العادات و التقاليد التي حاولت الكنيسة القضاء عليها ، ليس فحسب تلك العادات المرتبطة بالديانة الوثنية و طقوسها ، بل و أيضاً بعض العادات السلوكية التي اعتبرها رجال الكنيسة شائنة و سفينة و ينبغي التخلي عنها ؛ و من تلك العادات المذكورة في اعترافاته²¹ و التي رغب بشدة لو أن الناس يتخلوا عنها و ينسونها لأن لها علاقة بما كان يسمى البارونتاليا "Parentalia" أي الاحتفال بذكرى الموتى لعدة أيام ، تبدأ يوم 13 فيفري و تنتهي يوم 21 فيفري²² ، حيث استمر مسيحيو بلاد المغرب القديم في أخذ الأكل و الشراب لقبور القديسين ليتقاسموه جميعاً بالمكان ، كما فعلت والدته مونيكا "Monica" حين أعطت حاجب الكنيسة ما جلبته من حساء و خبز و خمر معتق و لكنه أرجعه لها بأمر من أمبرواز "Ambroise" الذي يعتبر حسب أوغسطين "سيد التقى" و تقبلت الأمر بخضوع و استكانة ؛ ولكن تلك الفاعلة و المتقبلة لنصائح الواعظ و القائم على الكنيسة آنذاك والددة أوغسطين التقية ، لكن ماذا عن بقية سكان المنطقة و غيرها من قاطني بلاد المغرب القديم ؟

و يروي لنا القديس أوغسطين في مدينة الإله²³ قصة بترونيا "Petronia" المسيحية القرطاجية ، ثرية ابتاعت حجرا من يهودي حصل عليه من كلية ثور ، و أكد عليه بأن تحمله معها حتى تشفى ، و بالفعل حملته معها أينما ذهبت حتى لزيارة القديس إتيان بأوزاليس للتبرك به ، و في أحد الأيام و بينما هي تتجول بأراضيها قرب نهر المجردة (Bagradas Flumen) ، اكتشفت أنها فقدت تعويذتها فاعتبرت ذلك دليلا على شفائها و لغاية يومنا هذا لازالت منتشرة عادة التبرك بحجارة و التراب المأخوذ من بعض أماكن الأولياء الصالحين و كذا تكديس بعض الحجارة في شكل دائري أو عمودي لجلب المقدس إليها و الغرض منها الشفاء من الأمراض و الخصوبة للنساء و لزيادة قوة المقدس بها و إثارته لابد من سكب الزيت أو الدم عليها و يكفي أن ندقق الملاحظة ببعض القرى و الأرياف و بجانب مراكز الأولياء الصالحين حتى نرى مثل تلك الحجارة المكدسة دائريا أو عموديا ، و يذكر أرنوب (39 Arnobe I) أنه « إذا أخذ حجراً مصقولاً و مسح بزيت الزيتون و حين أحس بتلك القوة تسكنها ، أركع أمامها و أتوسل إليها أن تمنحني النعم » ؛ و من هنا يتضح لنا أن العادة أساساً ظلت متبقية من مخلفات عبادة الحجارة ، و ليست الحجارة بحد ذاتها التي تعبد و إنما تلك

القوة الإلهية الخفية التي تسكنها والأمر سيان بالنسبة لكل مما ذكر قبل الحجارة من جبال ومغارات وغيرها، التي تشكل سكناً لقوى خفية ومقدسة هي التي تهب مثلما قد تؤدي، و بالتالي يمكننا القول أن العادة وليدة الاعتقاد. ويضيف فيما أورده لنا أنه كان إذا أصاب أحدهم الفواق (الحازوقة) أمسك إبهامه الأيسر بيده اليمنى، وإذا تجول صديقان معاً وتعثرا بحجر أو طفل أو كلب فإنهما يفسران ذلك بزوال صداقتهما، لذلك فقد كان لازماً عليهما ضرب الكلب أو الحجر أو الطفل حتى لا تزول الصداقة بينهما، أما الداخل لبيته فعليه الوقوف امام باب المنزل ووطء العتبة بالاقدام، ومن عطش وهو ينتعل حذاءه يعود لفراشه، ومن تعثر وهو يهيم بالخروج من بيته يعود إليه²⁴ خوفاً مما يخبئه له القدر من طالع سيء وغيرها كثير من العادات التي سئم هو وغيره من رجال الكنيسة ليدحضوها كالذهاب للمنجمين للإستعلام عن اليوم الملائم للحصاد، والبحارة يتساءلون عن اليوم المناسب للإبحار، أو السفر وحتى التجار كان يبحثون عن اليوم المناسب للريح و يبدو فشل الكنيسة واضحاً مع مجتمع بلاد المغرب القديم من خلال قول القديس أوغسطين²⁵: «ستقولون إنني أردت نفس الكلام دائماً، إذن ماذا يمكنني أن افعل، أنا الذي تهمونني بالثرثرة؟ تغيروا، تغيروا، أرجوكم، إذا لم تقلقوا على أنفسكم، أشفقوا عليّ، على الأقل ...»؛ و الحق يقال فرغبة أوغسطين في الإشفاق عليه لم تكن نابعة من فراغ أو مجرد تضخيم للأمر، لأن التجار والمشعوذين والمستغلين لحالات الضعف الإنساني كانوا يبدعون في كل وقت وزمن و يركبون موجة كل جديد، حيث أن صناعات التعويذات الخاصة بتلك العادات التي تعود الناس لبسها تأقلموا مع الدين الجديد وبدأوا يسجلون اسم المسيح على التعويذات، أو القديس غابريال "Gabriel" أو ميشال "Michel"، وأحياناً يكتبون فقرات من الإنجيل و عوض عظم النعم كتبوا عبارة "لن يكسر أي عظم" التي أخذوها عن القديس جون، واستعملوا رمز الصليب لهزم الشيطان، والأرواح الشريرة، في حين كان من المفروض أن يحمل رمز الصليب فقط ثقة الكنيسة²⁶.

ومن العادات السلوكية والتي كان بعضها مستحدثاً، وليد الرفاهية والترف والتحضر والتمدن، الضحك بصوت عالٍ ومثل هاته العادة نهى عنها كليمن الاسكندري²⁷ ونه إلى أن ضحك العقلاء يجب ألا يتعدى حدود الابتسام، أما إذا انقلب قهقهة فهو للنساء كشلسموس "Kichlismos" أي ضحكة العاهرات، وللرجال كنشاسموس "Kanchasmos" أي ضحكة وسطاء الفاحشة، كما لا ينبغي الضحك على أي شيء وفي أي وقت ولا على الأمور المخجلة أو أمام رجال أكبر سناً إلا إذا ضحكوا، كما نهى عن التفوه بالكلام البذيء فهو من العادات السيئة ويؤكد بأن الشخص المتفوه به إنسان وثنى، سوقى

ووقح ، و على المحيطين به من الناس توجيه نظرات حادة له و إسكاته أو عدم السماع له أو السخرية منه ؛ و لو تأملنا قليلاً لوجدنا مثل هاته العادات السلوكية نعيشها نحن اليوم في مجتمعنا ورغم أن ديننا لا يسمح بها بما في ذلك عادة أخرى مشينة أيضاً لسنا وحدنا من نعاني منها ، بل حتى رجال الكنيسة كانوا في العهد الروماني ببلاد المغرب القديم قد نهوا عنها وهي إكثار القسم في الكلام ، وكذا الأمر بالنسبة لقسم التجار في بيع بضاعتهم .

ولعل من أكثر العادات الوثنية و التي استمرت و أثارت اشمئزاز و رفض أكثر رجال الكنيسة حدة و صلابه ، تارتوليانوس القرطاجي هي الإكثار من الاستحمام خاصة المختلط ، حتى أنه قال ²⁸ متهمكاً : « ... لا أذهب للحمام منذ الفجر خلال أعياد ساتورن ، و ذلك حتى أحتفظ بالحرارة و اللون ، سيكون لي بعد الموت ، الوقت الكافي لأصبح مثلياً و شاحباً ... » ؛ أما كليمون الاسكندري ²⁹ فرأى أنه لا يتوجب الذهاب للحمام بالنسبة للنساء إلا من أجل النظافة و الصحة ، و بالنسبة للرجال فمن أجل الصحة فقط ، و ليس لأجل المتعة المناقضة للحشمة ؛ في حين حذ القديس أوغسطين ³⁰ أن يتم الاستحمام مرة في الشهر فقط و أكثر من مرة في حالة مرض أو بأمر من الطبيب .

و يعرف عن سكان بلاد المغرب القديم حبههم للتسلية و الترفيه و بخاصة المصارعة ، التي عرف عنها أنها كانت دموية و تنتهي دوما بموت الخصم المهزوم و إراقة دمه بسبب رغبة المتفجرين في ذلك ، و من تلك القديس أوغسطين ³¹ نفسه يعترف في اعترافاته أنه كان محباً للسيرك و الألعاب و المصارعة واحدة من تلك الألعاب التي كانت تقدم في الحلبة ، و نظرا لهاته الشراسة و كثرة الرهانات حول هاته اللعبة و غيرها من الألعاب حاول رجال الكنيسة إبعاد من تأثروا بالمسيحية عنها لكن دون جدوى ، و لم يفلحوا دوما كما حدث الأمر مع نصيحة أوغسطين لتلميذه و صديقه الصغير أليبيوس "Alypius" الذي كان مهووساً بالألعاب و كل وسائل التسلية لكن و بعد إنارة أوغسطين لدربه أصبح يحس باشمئزاز من الذهاب للسيرك و حضور ما يعرض في السيرك ³² ، و كان السحر الاسود حسب البعض معروفاً عند الليبيين لدرجة أن بعض السحرة كانت لهم القدرة على أن يهلكوا الماشية و يميئوا الأطفال و يتلفوا الغلّة ³³ ؛ كساحرة تازولت أونيا فروكتيوزا "Ennia Fructusa" ³⁴ التي أشارت نقيشة ضريحها إلى أنها لم تمت كما استحقت العقاب قانونياً و لكن أرواح الموتى التي وظفتها لطقوس دينية و الآلهة هي التي انتقمت منها ؛ تلك الأرواح التي كانت حسب بعض المؤرخين ³⁵ تستغل لأغراض سائنة و سافلة من قبل السحرة . ومثلما كانت تلك الأرواح تؤدي ما يطلب منها فإنها أيضاً كثيراً ما تنتق ممن يستغلها و يبتزها تماماً كما حدث مع ساحرة تازولت ؛ و نشير فقط إلى أن السحر وُظف

آنذاك لكل الأغراض الإنتاج وجعل المحصول جيداً، الحب، الكراهية، المرض وإلحاق الأذى بالغير... وكان يتم إما بصنع دمي أو بكتابة ما يريده على صفيحة برونزية أو حديدية ثم يُلَف في قماش العديد من اللفات و يردم بمقبرة هناك العديد من هاته النماذج عثر عليها بالمقابر. وبعد عرض جزء من تلك العادات و التقاليد التي كانت موجودة ببلاد المغرب القديم، حتى أن البعض منها ليس غريباً عنا ولا يزال موجوداً، يمكننا القول أن أغلب تلك العادات لو بحثنا في أصل تواجدها لوجدناها نابعة من اعتقاد راسخ بتحقيقها للمبتغى منها والتي بعضها ما هو إلا طقوس و شعائر دينية لمعتقد ما كان يعبد من قبل الأسلاف، و بحكم التقليد أصبح عادة، و ليس مهماً أن تكون العادة أصيلة أو دخيلة بما أن كل الشعوب القديمة بما فيها مجتمع بلاد المغرب القديم، تتأثر و تؤثر و بفضل الانصهار بين مختلف الشرائع و الوافدين في بوتقة التفاعل الحضاري يتولد النتاج الحضاري للجيل الجديد الناتج عن التزاوج المختلط و المتأثر بعادات هذا و ذاك، و سؤالنا هو: كيف تستطيع العادات العيش على جذور الماضي برغم تطور أنماط عيش الأسرة و اختلاف اهتمامات أفرادها من عصر لآخر؟ و لماذا ذاك الارتباط بالتقاليد و ما يكتنفها من تطبيق لبعض العادات الوثنية حتى بعد التنصر؟ أم أن كل ما هو مادي و قابل للتطبيق يظل مدعوماً أكثر مما هو روحي؟ و هل للجهل دوراً في إنعاش العادات و التقاليد إلباسها ثوباً و حلة تلائم عصر الأسرة الانتقالي عبر الزمن.

الهوامش:

1. - Hérodote, Histoires, IV, texte établi et traduit par Legrand(PH-E), Paris, Les belles lettres, 1945
2. هي أول الشعوب المقيمة غرب مصر بليبيا و قد حاول بعض المؤرخين جعلهم التمسو، في حين قال البعض الآخر أنهم خلفاء المشوش الذين انتصروا على رمسيس الثالث سنة 1188، إلا أن كلا الفرضيتين لم تلق النجاح لأنهما ضعيفتي الأسس التي استند عليها في إثبات ذلك، Désanges(J), Catalogue des tribus africaines de l'antiquité classique a l'ouest du Nil, Dakar, 1962, pp169-170
3. -Flaubert(), Salammbô., p 252 ; Proulx(G), Femmes et féminin chez les historiens Grecs anciens(Ve siècle a.J.-C – II siècle a.J.-C), Thèse de doctorat, Université du Québec à Montréal, 2008, p 113
4. - Gsell(S), Textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord, Hérodote, éd., Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1915, p 196n°7
5. الزمامون من القبائل الكبرى القاطنة على الضفة الشرقية للسيرت الكبرى و أكثر ما يعرف عنها رحلة الشبان الخمسة الذين وصلوا إلى منبع النيل الغربي، و كذا -
أكلهم للجراد بعد تجفيفه تحت أشعة الشمس و خلطه مع الحليب، بنت النبي مقدم، سياسة الرومان اتجاه قبائل بلاد المغرب القديم خلال العهد الإمبراطوري الأعلى، (أطروحة ماجستير تحت إشراف د. خديجة منصوري)، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2001-2002، ص 39 - 40؛ و لمزيد من المعلومات أنظر:

Hérodote ,Histoires ,IV , 172 ; Périples de Scylax , 108 ; Vivien de Saint Martin(M) ,Le Nord de l'Afrique dans l'antiquité Grecque et romaine.Paris , 1863,pp 15-22 ; Gsell(S),op.cit , pp 203-206 ; Faidherbe (L), « Voyage des cinq Nasamons d'Hérodote dans l'intérieure de la Libye » , R.Afr, XI ,1867 , pp 55-72

6. تعتبر هاته القبيلة من قاطني الضفة الغربية للسيرت الصغرى ومن جيرانه بتلك المنطقة الكسيباس و الأسبيت و السماموكي و الكنييين ، ولعلمهم من الرحل الذين ينتقلون باستمرار بحثاً عن المياه لقطعانهم ، بنت النبي مقدم ، نفس المرجع ، ص 40
7. -تعتبر هاته القبيلة من قبائل السيرت و يحتمل أن تكون فرعاً من اللوتوفاج و من جاراتها قبيلة المكلاهواس و الأوزاس ، نفس المرجع ، ص 39
8. - هنا ينبغي التأكيد على قوة المرأة التي استمرت في بعض القبائل عبر العصور و يبدو أنها كانت ذات سطوة محكمة على الرجل حتى و إن كان زوجها و برغم انتشار الاسلام إلا أن مثل هاته العادات ظلت مسيطرة بسبب الأعراف و التقاليد و دليلنا على ذلك ما ذكره ابن بطوطة في رحلته بعد زيارته لمسلمي قبيلة مسوفة المقيمة بآيوالاتن حيث رأى أن رجالهم [حتى و إن كانوا من عليّة القوم سواء قضاء أو شيوخ قبيلة...] لا يغارون على نساءهم ، و لكل من نساءهم صاحب تخلو إليه في حضور أو غياب زوجها دونما اعتراض منه ، و لا أحد ينتسب لأبيه ، و لكن لخاله ، والإرث يعود لإبن الأخت، أبو عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي(الملقب بشمس الدين و المعروف بابن بطوطة)،رحلة ابن بطوطة"تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار" ،دار صادر بيروت ،1992،صص 677 – 678 ، و حول استمرارية و بقاء بعض العادات و التقاليد القديمة لدى سكان بلاد المغرب القديم أنظر :
- De Medeiros (F) , L'Occident L'Occident et l'Afrique, XIIIe – Xve siècle , éd., Karthala , 1985,pp 150-152 ;152n°44
9. - Désanges (J), Histoire naturelle .Livre V,1-46 ,Texte établi, traduit et commenté, Les belles Lettres.Paris , 1980, pp 471-472; Liébert(Y), Rrgards sur la truphé étrusque , éd ., Presses univ . Limoges , 2006, p 62
10. - حول موضوع استخدام البول و بول الماعز كدواء لبعض الأمراض وبقائه كموروث لغاية يومنا هذا أنظر: بنت النبي مقدم ، " المرأة في بلاد المغرب القديم خلال العهد الروماني الأول " ، مجلة المواقف للبحوث و الدراسات في المجتمع و التاريخ ، العدد رقم 05 ، 2010 ، ص 257
11. - مصطفى كمال عبد العليم ، دراسات في تاريخ ليبيا ، المطبعة الأهلية ، بنغازي ، 1966 ، ص83
12. - Picard(G-CH), Les religions de l'Afrique antique , éd.,Pilon , p 237
13. -يوجد نموذج وحيد للبدن بكل بلاد المغرب موجودة بمتحف الآثار القديمة بالجزائر عثر عليها بتييزة ، و هي يد الإله سبازيوس ، هذا الإله من تراسيا دخل لبلاد المغرب القديم مع الوافدين من الجند و المدنيين ، و يبدو أنه أدمجت عبادته مع جوبيتر لأنه عثر على نقيشة تشير إلى ليبار ابن جوبيتر سبازيوس ؛ و قد اختلطت عبادته في بلاد المغرب القديم مع باخوس بالرغم من أنه اعتبر إله النبات ، غير أن يده اتخذت صيغة سحرية لا يستبعد أنها تكون بتدخل الطقوس اليهودية في المنطقة ، و هي نفس يد لالة فاطمة في العهد الاسلامي مع تغيير طفيف في الشكل برفع الأصابع الخمس بدلا من ثلاث في يد سبازيوس و ثني اثنين كي تحمي من العين ؛
- AE. 1961 :n°81 ; Picard(G-CH) , op.cit , p 237
14. - Plinie l'ancien , H.N , XXVIII , 4 , 7
15. - Johns(C), Sex or Symbol ?, Routledge,1982 , p 4
- و بالنسبة للصورة الخاصة بنقش ليبيا يمكن الاطلاع عليها بالموقع التالي
http://en.wikipedia.org/wiki/File:IMG_4086.JPG :
16. - « Invidie livide titula tantquem adseverbas fiere non posse , perfecte sunt d(ominis) n(ostris) s(lavis) minima ne contemnans »
d'après Picard(G-CH) , op.cit , p 237

17. - 180 لمياء البشير، الثروة البحرية في شمال افريقيا، أطروحة دكتوراه تحت إشراف بلكامل البضاوية، جامعة محمد الخامس الرباط، 2007-2008، ص 175 -
18. - محمد الصغير غانم، سيرتنا النوميديّة، النشأة و التطور، عين مليلة - الجزائر، 2008، صص 212 - 218
19. - **Ferchiou (N) et Gabillon (A)**, « Une inscription grecque magique de la région de Bou Arada, ou les quatres plaies de l'agriculture antique en proconsulaire », BCTH, ns, 19B, 1985, p.p. 109-125
20. - Ibid, p 125
21. - Saint Augustin, Confessions, VI, 2
22. - Ovide, Les Fastes, II, 533 et s.
23. - Saint Augustin, La Cité de dieu, XXII, 8
24. - Saint Augustin, Le Magistère Chrétien, II, XX, 30-31
25. - Saint Augustin, Sermons, CCXXXII, 8
26. - حول محاولة الكنيسة حمل سكان بلاد المغرب القديم على التخلي عن العادات السيئة و الالتزام بتعاليم المسيحية و الاعتدال في تصرفاتهم و حياتهم العادية أنظر : فوزية كرتي، الدين و المجتمع بالشمال الإفريقي من سنة 180 م إلى سنة 430 م «نموذج المسيحية»، تحت إشراف حليلة غازي بن ميس، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1998 - 1999، صص 162 - 177
27. - Clement d'Alexandrie, Pédagogue, II, 5, 46
28. - Tertullien, A pologetique, XLII, 4
29. - Clement d'Alexandrie, Pédagogue, III, 9, 46 - 47
30. - Saint Augustin, Lettres, III, 211
31. - Saint Augustin, Confessions, III, 2
32. - Saint Augustin, Confessions, VI, 7 - 10
33. - مصطفى كمال عبد العليم، المرجع السابق، ص 83
34. - CIL VIII, 2756
35. - Hugoniot(Ch), Rome en Arique, Paris, Flammarion, 2000, p 176